القط

للكاتبة الأسبانية أنا ماريا ماتيوث

ترجمة حسين الضبائي

كانت الطفلة في التاسعة من عمرها، وكانت مشغوفة بجمع المرايا المكسرة وكل ما يلمع من حطام . كانت تبحث دائما عن هذه البقايا اللامعة في أكوام القمامة والاعشاب ، وكلما لمحت شيئا يبرق ، التقطته ودسته في جيبها ذي الازرار المخيط في جانب ثوبها . وبعض الاحيان كانت الشظايا تجرح اصابعها، الا أنها لم تكن تبكي قط ، وانما تعود الى هوايتها بمزيد من الاصرار .

وكانت دائما مشغولة بالبحث عن الانجم الهاوية في هيئة حطام زجاجات، او دبابيس او قطع من الصفيح . وكان

المؤلفة

القصة المنشورة هنا ، انموذج ممتاز من القصص النفسي . وانك لتجد شخصيات انا ماريا تمتاز بالحيوية ومتواعر فيها الابعاد الثلاثة للشخصية بحيث تنم عن قوة الملاحظة وعمق التصوير ، وكذلك لا يستطيع القارىء ان يختلف مع الكاتبة فيما يتعلق بمنطقها أو مفهومها عن الحياة وهي تكشف ايضا عن فهم عميق للعقل البشري ، لا سيما في طبقة العالمين الذين يتصرفون كالاطفال .

وقصة القط ، توستو ، احدى قصص مجموعتها القصصية الصادرة بعنوان «الرمل» ، وقد ولدت آنا ماريا ماتيوث في عام ١٩٢٦ من ابوين ينتميان الى مدينة قسطلة ، ولم تستطع استكمال مراحل دراستها بسبب الحرب الاسبانية الأهلية ، ولكن مواهبها الادبية ظلت تنمو بدون انقطاع . وقد نشرت روايتها الاولى وهي في الثامنة عشرة وظل نجمها يرتفع باطراد في سماء الادب حتى أصبحت من كبار الكتاب في ميدان الادب الاسباني المعاصر . ويعتبرها الكثيرون اعظم كاتبة — بين الكاتبات — في أسبانيا اليوم وقد ترجمت روايتها « مدرسة في الشمس» الى اللغة الانجليزية ونشرت في أمريكا هذا العام ونالت تقدير الكثيرين من النقاد .

« المترجم »

الرجل الكسيح الذى يبيع السجاير ـ مفردة ـ وحجارة المداحات يعرف امر هوايتها هذه ، ومن ثم يحتفظ لها بالورق المقصص الذى يسطو على السجاير . وكانت الطفلة تلصق كل شىء على جدار كوخها ، بجوار النافذة ، وعلى هذا النحو كانت الاضواء ـ عندما يأتى المساء ـ تنساب من الحانه المواجهة للكوخ، وتنعكس على مجموعاتها وتصيبها بألوان مختلفة الدرجات مما يجعل الطفلة تعتقد بأن لديها من مناهج الالوان اكثر من أى شخص آخر .

وكان جسم الطفلة هزيلا ، وقد اكتست ذراعاها وساقاها بالخدوش ، اما شعرها فكانت تمشى به غير ممتشط، وحولهما شريط احمر تديره حول رأسها ولم يكن لديها غير روح واحد من الاحذية اكبر مقاس من قدميها . وفى بعض الاحيان ، عندما تجرى ، كانت تفقد احداها وكانت تعيش مع جدها فى كوخ مكون من غرفة واحدة ، ونافذة واحدة، وموقد واحد، وحصيرين للنوم .

ولم يكن الجد غير عجوز اعجف منحوس كالليمونة المعتصرة ، لا يكف عن الشكوى من هذه النهايات البراقة التى تأتى بها الى الكوخ، ويهدد بالقائها الى صناديق القمامة ، ولكنه كان فى بعض الاحيان لا يملك نفسه من النظر اليها ، عندما يأتى المساء وتنساب الاضواء من الحانة المواجهة ، ثم يهز رأسه وهو يعتقد ، ولا شك ، انها شىء رائع .

ولكن الجد كان يعانى فى الايام الاخيرة من نزلة برد شديدة ، ولم يكن من ثم يستطيع الخروج الى الشارع لم يكن فى مقدوره مع الطفلة أن تحمل آلته الموسيقية وتدفعها بالعربة فى الشوارع وينتعطف بنغماتها قلب القدر .

وكان سكان الاكواخ الفريبة يعطفون عليهما ولكن كان لهم متاعبهم الخاصة، بل ومرضاهم ايضا . ومع هذا كانت المرأة المقيمة بالكوخ المجاور تأتى فى بعض الاحيان وتكنس ارضية الكوخ وتشعل الموقد . وكانت امرأة طيبة حتى عندما تسمع فى الصباح وتقول انها لا تفهم سببا لوجود هذه المجموعة من قطع الزجاج والورق البراق ملصقة على الجدار ، وكم من مرة وصفتها قائلة « يالها من نهايات تافهة » .

وحدث ذات مرة أن حانت ثلاث سيدات من حى سان اطونيو واعطيتهما نحو خمسين درهما وزجاجة شراب للسعال . وقد حملقت احداهن فى كنوز الطفلة وخطر لها انها موضوعة لتزيين الجدران العارية . وفى اليوم التالى ارسلت السيدات صليبا ليوضع على احد الجدران ووضع الصليب على الجدار المواجه للكنوز البراقة . ولكنه ، اى الصليب ، اثار قلق الطفلة الى حد كبير لا سيما عندما كانت تختلس جرعات من شراب السعال الخاص بجدها، وكان شرابا حلو المذاق له نكهة النعناع .

وفى ذات صباح من ذلك الشهر ، يناير ، وبينما كانت الطفلة تبحث عن النهايات البراقة فى صندوق القمامة الكبير القريب من الكوخ ، لمحت قطعتين

مستديرتين لامعتين بالقرب من الصندوق ، لهما لون الفاروز وبريق المرآة . كانت عين قط قبيح المنظر هزيل الجسم ناحل الغراء سوء كطفل وليد . وانحنت الطفلة عليه ورأت انه مصاب بجرح في مخلبه لعله نشأ من حجر القى به عليه ثم ترك مهبطها . وكان فراؤه محمر اللون ، ناعما بسبب الرعشة وكان يرتعش بقوة . والتقطته الطفلة ،وحملته تحت ذراعها . فلما رآه جدها ، صاح مهتاجا كعادته كلما رآها تحمل الى الكوخ شيئا جديدا .

ـ ارمي به بعيدا .

ولكن الطفلة بحثت عن قطعة خشب صغيرة وضمدت منها جبيرة وربطتها برفق الى مخلب القط بعد ان طهرته بقليل من الخل . وبعدئذ خطر لها ان تطلق عليه اسما .

وتذكرت انها بين الحين والآخر تمر امام بيت كبير في شارع غير بعيد ، وكانت تقترب ببطء من فضاء السياج ، ثم تثب الى الحديقة وتتسلل الى احدى النوافذ المنخفضة وترتو الى داخلية الغرف . وكانت تشعر عندئذ بنفس الرهبة التي تجاهرها عندما تنساب أضواء الحانة وتنعكس على كوخها اللامع . الا انها لم تكن تستطيع أن تمكث طويلا ، لان كلبا ضخما يدعى فوستو ، كان دائما ينطلق نحوها نابحا ، فتندفع هاربة وتعود الى الشارع قبل أن يعثر قدماه .

لقد خطر لها وهي تذكر عدوها هذا ان تطلق اسمه على القط الذي غالت له .

ـ لسوف تسميك فوستو أيها القط الصغير .

وشعرت دون ان تدري لماذا ، انها انتقمت لنفسها من ذلك الكلب الذي طالما طاردها بنباحه .

انها لم تكن تريد الا ان تتفرج بالنظر الى داخلية الغرف ، تماما كما اعتادت ان تتفرج بالنظر الى انعكاسات ضوء الحانة على قطع زجاجها البراق . ولكن أحدا لا يفهم هذا ، كما لم يستطع احد أن يفهم حبها لذلك القط فوستو رغم دمامته وضآلة حجمه .

ومنذ ذلك اليوم والقط لا يترك الطفلة . كانت دائما تحمله ، سقيما جريحا ، تحت ذراعها وكانت تعنى به كثيرا ، وتخرج للبحث عن طعام له ، وكان القط يرتعش كثيرا ، وأحيانا يبدو كأنه يسعل .

وأخذ الجو يزداد قسوة مع توالي أيام الشتاء . وبدأ الجد المحور يكره القط ويقول انه سوف يقتله بمجرد أن يسترد صحته ، لان هواء فوستو كان يثقل على أعصابه ويجعله يعول بصوته الأجش .

ـ انه يثير في الانسان الشعور بالعثيان . ان الحيوانات الأخرى تخرج للبحث عن طعامها وهذا النوع يمكن للانسان ان يحتمله اما هذا ؟ ! انه اكسل مخلوق رأيته في حياتي ، انه لا يجرؤ ان يعمل شيئا . ولقد افسدته بتدليلك واحضار الطعام له ووضعه في فمه . لقد أصبح ضعيفا عاجزا .

ولكن الطفلة كانت ترتو اليه في

حنان وهي تضمه اليها بذراعها . انه لم يكن في نظرها حيوانا عاديا كغيره من الحيوانات الأخرى . كان دائما مقرورا مهيض الجناح كأنما القى به في عالم أقوى منه . فما ذنبه اذا كان قد ولد عاجزا ؟ هل يجوز أن تلومه لأنه ولد ؟

وقالت السيدة الطيبة المقيمة بالكوخ المجاور عندما جاءت لتقدم مساعدتها :

ـ ان شكله في الحقيقة مبشر . وقد

صار فراؤه كالمشعل ، ويمكنك ان تعد أصابعه . يبدو أنه مريض بالسل .

وقالت الطفلة :

ـ السل ؟ وهل هو مخلوق بشري ؟

وفي ذات صباح ، نهض العجوز من فراشه يسعل ويشهق ، وذهب كعادته ليستأجر عربة الآلة الموسيقية .

وسارا في طرقات ضيقة ملتوية مفعمة الجو بروائح الأطعمة المشوية ، ولم يكن الجد يكف عن صب لعناته على القط قائلا :

ـ تخلصي منه .. دعيه يمضي .. انك لن تستطيعي العودة الى البيت به .. ولهذا يجب أن تعقد العزم على ..

ولكنها كانت تصمم قائلة واسنانها تصطك من فرط البرد :

ـ لا .. انه مثلي ومثلك ..

وكانا يسيران ببطء شديد ، لأن الجد نهض من فراشه ضعيفا لا يكاد يقوى على دفع عربة الآلة الموسيقية . وكان من ثم يقول :

ـ اننا نعمل ببطء .. واذا استمر الحال هكذا فلن نحصل حتى على اجار العربة .

وتوقفا أخيرا في ركن من شارع ، وراح العجوز ـ وعلى سيجاره في جانب فمه ـ يدير مقبض الآلة الموسيقية ـ الشبيهة بالبيانولا ـ بينما كان الناس يمرون مسرعين غير حافلين . واخذت الشمس الغائرة تدفىء جسديهما قليلا .

وعاد العجوز يقول في لهجة تهديدية :

ـ اذهبي وتخلصي من هذا الحيوان .

وادركت الطفلة أخيرا أنه لم يعد جدوى من الاحتفاظ بالقط ، فأسفت ترنيت عليه في اكتئاب ثم تركته يقفز الى الارض ، ثم هرعت وعبرت الشارع الى الجانب الآخر ، وراحت تستجدي

المارة بابائهـــا الأليم دون أن يلتفت ورادها .

واحست الطفلة مع حدها تردد اغنية يعرفها كل انســـان ولا يحبهـا احد ، ولكنها كانت تريد ان تبكي ، وتريد في الوقت نفسه ، أن تملأ فمها بالسكر . وراحت تفكر ، آه لو استطعت ان املأ فمي بقطع صغيرة من السكر — بكمية كبيرة من قطع السكر الصغيرة البيضاء. وعندئذ ســـوف امضغها — وامضغها وسيكون لها صوت حلو — حرش — حرش — وبهـــدا يبدو كان ادني قد امتلأنا بالسكر ايضا » .

وتنهـــدت بعمق — وأعطاهـا احد الناس بضعة دريهمات أخذت تضلصل بها في ايانها .

ومضيا بعد ذلك في طريقهما ، واخذ الجد يدفع العربة الى شارع آخر باسرع ما في مقدوره ان يفعل . وتبعته الطفلة وهي تعتقـــد انه لن يكون هنـــاك في العالم سكر بكميتها — فلا حلوى من هذه الأمنية . ونظرت حلمها .

كان فوستو يتيمهـا — وهذا امر طبيعـــي . وشرعت الطفلة تريد من صلصلة النقود في الاناء . وكانت عينا فوســـتو تشـــعان قرصين من حلوى النضاع ! وقالت الطفلة لنفسها

« لو ان جدي لا يراه ، فسوف يتيمنا فوستو — سيأتي معنا » .

وتذكرت فجأة أن العطط لا تصـــل الطريق ابدا — وأحست بالرغبـــة في الضحك والقفز . ولكنها لم تفعل هذا. لانها كانت تعلم انه لا ينبغي ان يبدل الانسان مجهودا كبيرا الا في العمل .

وتوقفا عن المسير الآن مرة أخرى . وكانت أمام الجد الكبيرتان تتدوان من فوق المطرف الملتف حول عنقه. وكانت النغمات الموسيقية المرعشة حولهـــما مرعشة مثيرة للأعصاب . انها تخنـــق الأنفاس وان لم يكن هـذا قصـــدها . وعضضت الطفلة اصبعها . لقد أحست باحتكاك فوستو بساقيها . ونظرت في اشـــعاع الى الأرض — آه ها هو ذا فوستو يرتعد ويبول . وهي — ودفعت القط بعيدا بقدمهـــا . ولكنه أبى أن يتزحزح . وعندئذ أخرجت قدمها سرا من الحذاء . وبدا فوستو يلعب برباطه . وسارت الفتاة بعيدا عنه .

وكان الجد قد وصـــل الى شـــارع آخـــر . وكانت الشـــمس قد شرعت تسكب ضوءهـــا الذهبي على جـــانب الطريق . وعرجا الى شارع جانبي . ونفخ الجد في كفيه وبدأ يدير الآلـة الموسيقية .

ولم يلحظ أن هنـــاك ، في أدنى الشارع رجلا آخر يعزف على الأوكرديون وكان شابا كسيحا مقرون الحاجبين . وقد صرح في الجد مطالبا اياه بالوقوف عن العزف ، قائلا انه كان في الشارع قبله . ولكن العجوز الذي نقل سمعه بسبب مرلة البرد الأخيرة لم يسمعه او لم يشأ أن يسمعه ، واقبـــل عازف الأوكرديون عليه صائحا . وكان شابا طويل القامة قـــوي الجسم كسيحا . وقعت الطفلة تنظر اليه بهدوء .

وشرع العجـــوز وعازف الأوكرديون يتشاجران .

قال المحور مدافعا عن نفسه

ـ ان الشارع للجميع ·

وكانت اطرافه لاتزال ضعيفة من المرض ـ لعله لايزال يعاني من الحمى· انه لم يسترد قواه تماما · وأهم من هذا كله كيف يحظر لأي انسان أن يطرده من الشارع كأي كلب ضال ·

ولكن كان الواضح تماما أن عازف الأوكرديون هو الذي وصل الى الشارع اولا · بل كان في الشارع فعلا عندما دخله المحور بآلته الموسيقية المزعجة·· نعم· ان عازف الأوكرديون على حق ·

لم يكن في مقدور المحور أن يفعل شيئا الا المسير بآلته الموسيقية الى شارع آخر وفجأة بدأت الدموع تنحدر حول انفه . كان رجلا محورا ـ . محورا جدا .. هكذا قالت الطفلة لنفسها. ان الشارع ليس للجميع ·· هكذا فكرت ·· وليس لأحد بصفة خاصة أيضا . ومرة أخرى شعرت بالشوق الى السكر · ·الى كثير من السكر الذي يملأ فمها ويسمها من التنفس ·

وانطلق حذاها انه على حين غرة ومسح دموعه والتفت اليها قائلا

ـ لماذا تعرجين ؟

ونظرت الطفلة الى قدميها ، ورأت أنها بحذاء مفرد ·

ـ اين فردة الحذاء الاخرى ؟

وهزت كتفيها ·· ولاح أن الجد يهمه كثيرا ان تعثر على الفردة الأخرى من حذائها · انه يكون احيانا عنيدا كالسكير أو كطفل صغير · وامتدار للبحث عن الحذاء ·

وكان فوستو لا يزال عند المنعطف الشارع يحك جلده في الحصباء ويموء برفق ·

واستدارت بالرجل المحور نوبة عصب جامح · وانقض على القط وركله بعنف · ووضعت الطفلة يديها على اذنيها · ولكن عينيها لم تغمضا رغم رغبتها في اغماضهما . وهكذا رات كيف طار فوستو في الهواء ثم سقط بعيدا·

وقالت لنفسها ، لا شك انه قتله ،

ثم استأنفا المسير بسرعة · وأخذت الطفلة تساعد جدها على دفع عربة الآلة الموسيقية بكل قواها ··ولم تكن تبكي·

ولكن الرجل المحور كان متوتر الأعصاب ؛ مضطرب النفس جدا · وتوقف فجأة وراح يصرخ قائلا انه صار محورا ، ولم يعد يحتمل أكثر مما فعل ، وقال أخيرا

ـ انني لم أعد قادرا على الاستمرار في العزف · لقد انتهيت ·

ووضعت الطفلة يديها على أذنيها ·

ثم عادت نفسه اخيرا ، ووقف بهدوء ، ونظر الى الطفلة قائلا

ـ حلم ·· هلم ندخل هناك ·

وأشار الى حانة صغيرة ذات نوافذ زجاجية قذرة ، وعلى مدخلها لافتة ملونة بالأزرق الأبيض والأحمر · وفي داخلها ، عند منصة الشرب يمكن للانسان أن يحصل على شطائر جافة ـ

مائدة صغيرة ، وطلب المجوز قدحا من الخمر . وكان الجميع في الحديقة يتحدثون في وقت واحد . واشترى المجوز حبا وجبزا وأقبلت الطفلة على الطعام تلتهمه بسرعة حتى انتفخت وجنتاها وتورمتا . وأخيرا أراحت رأسها على المائدة . وكانت مستديرة لها سطح من الرخام المكسور أشعاع البرودة في جبينها ما أشعد جدتها على قولستو . ولكن جدتها كان ممتزجا بغضب شديد . وفي تلك اللحظة سمعت صرير الباب ، وإذا بالشاب الكسيح يدخل الحانة حاملا معزفه .

ولاح أن كل من في الحانة يعرفه . ولكن الشاب اقبل على مائدة المجوز والطفلة عندما لمحهما ، وقال بصوت متردد

ـ سلاما يا جدي .

ولكن الجد لم يرد .. وانما شرب جرعة من خمره .

وأحضر الكسيح مقعدا وجلس بجانب المجوز ، وأخرج كيس تبغ وقدم بعضا منه اليه وعندئذ حك الجد قفاه واخذ التبغ ، ثم شرع الاثنان ، في صمت ، يلفان سيجارتيهما .

وبدا الكسيح الحديث بصوت حافت ودود .. وأرهفت الطفلة سمعها وهو يقول .

ـ انني لا أجل لك الصحبة يا جدي . ولكن يجب أن ينال كل انسان حقه وقد كنت أنا في الشارع أولا . ولا ينبغي أن يكون هناك أحد حيث أكون .. ولكن دعنا من هذا .. انا أصدقاء .. أليس كذلك ؟

وأومأ المجوز برأسه ، ثم قال فجأة في حرارة

ـ انني لم أسمعك لأن سمعي ثقيل .. وكنت قد امتنعت عن الخروج بالة الموسيقية منذ أيام . ولكن عندما كانت ابنتي ـ أم هذه الطفلة ـ على قيد الحياة ، فان الأمور لم ...

وقاطعه عازف الأوكرديون بحركة من يده كأنما يقول له ، مهملا .. انني أعرف القصة كلها .. ،

ثم راح يقدم بضاعته .. قال انهما يتحركان ببطء شديد . فلو أمكن ان يزيدا من سرعة الحركة ويجدا شوارع أكثر ، لازدادت ايراداتهما اليومية . وتناول من جيبه قلما وراح يخطط به ، على رخامة المائدة ، رسما للشوارع التي يؤدي بعضها الى بعض .

واسقط احد رواد الحانة كوبا من الزجاج على الارض ، فتحطم وهرعت الطفلة الى التقاط الشظايا ودسها في جيب ثوبها غير حافلة بما قد يصيبها من خدوش أو بما كان يقال لها ، حذار أن تجرحي يديك يا صغيرة ، وكان الجد وعازف الأوكرديون مستغرقين في مشاريعهما ، فلم يراها . وبعد ان جمعت الشظايا بحذر ، تذكرت قولستو وشعرت بالأسى من أجله يكاد يخنق انفاسها .

وقالت لنفسها .

، لتعرض انه مات ، لتعرض انه

مات ، فبالنسبة المسكين ، ان القط المسكين قد لا يعرف ماذا يفعل حين يجد نفسه وحيدا محروما من القوة التي تعينه على الاستمرار في الحياة ، ومرة أخرى شعرت بالرغبة في البكاء .

ودخل شخص آخر الحانة مصحوبا بدفعة أخرى من الهواء البارد . ودون أن تتردد لحظة واحدة ، تسللت الطفلة من الباب المفتوح الى الخارج .

وسارت من شارع الى آخر .. آه .. انها كانت هناك في ذلك المنعطف . انه لا يزال في مكانه كما توقعت .. مكوما بجوار الجدار ، ينظر أمامه في حزن . والتحمت الطفلة واحدته بين ذراعيها . وسارت به على غير هدى ، وكانت تسير وهي تشعر بمرارة .. بمرارة عميقة الهمت قلبها واغلقت نفسها . وظلت تسير بجوار الجدران .

وفجأة وصلت الى أنفها رائحة طعام

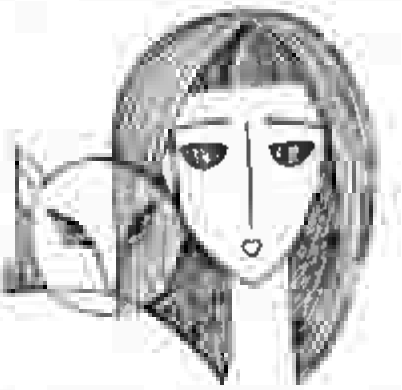

شهي ، فاقتربت ببطء من النافذة الجميلة المنصاعد منها الرائحة . وتطلعت الى الداخل . ورأت مع القط مطبخ مدرسة كبيرة وحملقت الطفلة من بين قضبان النافذة . وكذلك فعل فوستو . وبدا كل شيء عالما بسبب السحب المعتمة برائحة الطعام آه .. ما أروع الدفء في ذلك المطبخ . وما أعذب رائحة الطعام ، رائحة الخبز وآلاف الأطعمة الأخرى الشهية التي يأكلها الناس كل يوم ، والتي لا نصيب فيها لهذين الاثنين .. الطفلة والقط لقد جعلهما البخار الدفيء يغمضان أعينهما . وكانت أرضية المطبخ ذات مربعات كلوحة الشطرنج الصحية . وبدا لهما أن أوعية المونية هائلة تعلو على النار .. أو تعلو من الخشب وكان في مقدورهما أن يريا أقدام الخادمات وأحذيتهما السوداء ، وأطراف أرديتهما

واحنت الطفلة تربت عنق القط حتى وعي ان هناك على المنضدة أشياء شهية لفوستو في متناول يده أيضا .

وفجأة انحنت على أذنيه وقالت له

ـ علم ياصاحبي .. اذهب الى المطبخ انني لن أستطيع مساعدتك الى الأبد .. عليك أن تتعلم كيف تساعد نفسك .

وأرسل فوستو مواء خافتا ، وعندئذ امسك بالطفلة القصب ، فوضعته على القضبان ، وضغطت انفه عليها قائلة الآن .. انطلق اذهب سأبقى معك دائما لأساعدك ، لا يا سيدي . أدخل واحصل على طعامك بنفسك .

ولكن فوستو تشاب وقوس ظهره ، وحك انفه بمخلبه .

وقالت الطفلة :

ـ أيها الأفاق النحس ، لسوف اريك

ـ انظر .. انظر الى ذلك القط ، القط ،

كان ثمة قط أسود كبير لامع الغراء دائما تحت مقعد في المطبخ . وكان قطا معنيا به وبعدائه وكان نظيفه الحمال أمينا مستقيم الخلق . ومن ثم لم تحاول احدى الخادمات أن تطرده من المطبخ وعلى الجملة كان يؤدي واجباته وينال من ثم كل حقوقه .

ودفعت الطفلة بفوستو الى المطبخ قائلة :

ـ هلم اذهب وتعلم من ذلك القط .

وبعسد ان القت به داخل المطبخ اغمضت عينيها برهة ، ثم فتحتهما لترى ماذا حدث .

راب فوستو يتسلل ، مترددا نحو اناء موضوع في الركن ، وكان بالاناء بقايا طعام تخلفت عن القط الأسود . وبدا قلب الطفلة يخفق بالسعادة .

ومرة أخرى انهار كل شيء . لقد استيقظ القط الأسود ، وبحر في غضب ، ثم وثب على فوستو أوه . يا له من مخلوق أناني . لقد كان في الاناء طعام اكثر مما يحتاج اليه ، ولكنه رفض أن يتنازل عن كبره من اجله . ورأت الطفلة فوستو يفر ويندفع باحثا عن الباب وقد تركه الفزع . ولكن الطفلة ادركت أن القط الكبير لا ينوي ايذاء القط الصغير . كان يكشف فقط عن مخالبه ويستعرض عضلاته . كانا يتسابقان الى حد ما جدها والشاب الكسيح .

واستطاع فوستو أخيرا أن يفر من الباب . وهرعت الطفلة الى الجانب الآخر من البيت بحثا عن مدخله ، ولم يلبث فوستو أن ظهر وهو يكاد يبكي . وكانت الشمس قد خرجت من وراء السحب واضاءت في حفرة فراء الذي بدا كالحا متآكلا .

وكانا واقفين أمام صندوق فارغ ثم جلست الطفلة بجوار الجدار وبدأت تحنو بالتراب . واقترب فوستو نحوها في تردد وكأنما أدرك أن الأمور تغيرت ولم يشأ أن يفر لكن ترفعه الى ذراعها ، وانما اكتفى بأن تكور بجانبها وراحت أجفانه تختلج تحت أشعة الشمس الخفيفة الدافئة .

وبقيا على هذا الوضع حينا ، ثم اذا باب المطبخ يفتح ويخرج منه القط الكبير الأمين السارع . كان يريد أن يستمتع بدوره ويتعم باشعة شمس الشتاء . وجلس على مسافة غير بعيدة وذيله ملفوف حوله ، وشواربه منتصبة . وكان في جملته يبدو كمخلوق سعيد مطمئن الى رزقه الدائم . وقالت الطفلة لنفسها «لا يتحصله الا سحار يدخنه كما يفعل الدوق باكو » . وكان منظره يذكرها بالدوق باكو صاحب متجر البقالة الذي كان من عادته ، بعد أن يفرغ من طعامه ، الخروج من البيت منتفخ الوجه ، لامع العينين ، ليشرب القهوة في المقهى المجاور .

وفجأة نظر القط الكبير الى فوستو .

وبدا للطفلة انها ترى في نظراته نفس المعاني التي كانت تراها في نظرات العجوز باكو عندما كان يلقي اليها بقطع السكر . وظل القط الأسود يرنو الى فوستو مدة طويلة -- طويلة جدا . وفجأة تذكرت الطفلة صوت الشاب الكسيح وهو يقول لجدها :

« سلاما يا جدي -- انني لا احمل لك اية ضغينة ، ولكنني كنت في الشارع أولا ... ، وكان على حق ، ان الطفلة بدأت تفهم الأمر على هذا النحو . وكادت تبكي من فرط الغضب وقالت لنفسها ، طبعا انه يصيد الفيران من الطبخ ، ولهذا يطعمونه ويحبونه .

وتذكرت أن عليها أن تتبع لفوستو فرصة أخيرة ، وتذكرت أن هناك كنيسة صغيرة قديمة بالقرب من المكان . وكان القساوسة فيها يعطونها بيضا حين والآخر صور القديسين ، وانها لتتذكر أنها سمعت بأن مكتبة الكنيسة مليئة بالفيران . فيران كثيرة متعودة تأكل الورق والشموع .

وحملت فوستو بين ذراعيها بسرعة ، وابتدأت تجري حتى اذا وصلت الى الكنيسة ، أدركت مدى المسافة التي قطعتها . فقد أحست كأن جسمها امتلأ بالدبابيس ، وانها لاتكاد تقوى على الحديث . وكان كل شيء داخل الكنيسة مظلما .

ودخلت المكتبة .. ورأت القسيس فيها ، وظهره اليها ، وكان يبحث عن شيء في أحد الأدراج . فاقتربت منه ولما رآها قال لها :

ـ ماذا تريدين أيتها الصغيرة ؟

وحاولت أن تشرح له الموقف بقدر ماتستطيع . ولم يفهم هو الحقيقة في اول الأمر ، اذ حسب أنها تريد أن تبيع له فوستو ، ومن ثم قال لها :

ـ لا لا ـ ان لدي قطتين جميلتين جدا . ـ أجمل كثيرا من قطتك هذا .

ـ ولكنني أريد أن اقدمه لك هدية حتى يصيد الفيران بطير ما تقدمه اليه من طعام .

وصمت القس برهة ، وأخيرا ابتسم ـ وكان رجلا ناحل الجسم شاحب اللون ، على جده شامة في حجم التوتة . وقال في النهاية :

ـ حسنا جدا .. دعيه هنا .

ثم قدم اليها يده لتقبلها . وتركت الطفلة فوستو على الأرضية وأغلقت الباب وراءها بسرعة حتى تمنعه من اللحاق بها . وغادرت الكنيسة على اطراف اصابعها حتى وصلت الى الشارع ثم انطلقت تعدو وكأنما يطاردها قطيع من الذئاب .

ولم تشعر بالرغبة في العودة الى جدها . فلاشك أنه سيشتد في تعنيفها . لسوف تنتظر حتى يهبط

الليل وتعود الى الكوخ لتنام . وكانت تشعر بارهاق شديد وكأنما يجثم عليها ثقل ضخم ، كما احست بم اع هائل في معدتها . ومضت الى صندوق للقمامة بجوار الجدار ، ونامت بجانبه بعد أن تكورت في ثوبهـا وحاولت أن تخفي يديها في أكمامها .

ولما استيقظت وجدت الشمس قد اختفت تماما والبرد قد اشتد . ودلكت ذراعيها وضربت الارض بقدميها .. ثم اذا هي تتذكر فوسيو .

وقالت لنفسها في أمل ، ان فوسيو الآن مثـل غيره من القطط ، ثم راحت تتساءل عنه في قـرارة نفسها وهي تشعر بالحزن والقلق .

ووجدت نفسـها ، بلا ارادة ، وبلا فهم للسبب، تندفع نحو الكنيسة ، وتدخلها وتبحث عن القس . ولكنها وجدت قسا آخر .. رجلا قصـير القـامة ، قبيح الشكل ، مشغولا بتنظيف أحد القناديل وقال لها

ـ ماذا تريدين ؟

وسرحت له مهمتها ثم قالت :

ـ لقد أحضرت قطا احمر اللون لصيد الفئران ، فهل يمكن أن اراه ؟

ـ آه .. تذكرت ، اذن فهذا قطك ! اتعرفين كيف وجدته ، وجدته يلعب مع فار . ووجدت الفار تركه ويعبث به .

ونظر فوستو من تحت أحد المقاعد بعينين حمراوين مستسلمتين وحملقت الطفلة اليه في صمت بينما استطرد القس يقول :

ـ ان خير ما يمكن أن تفعليه بهذا القط هو القاؤه في البحر . انه لا يصلح لشيء . بل انه ليس جميلا اقتليه .. أرحيه من شقائه لأنه مريض جدا .

وتمتمت قائلة :

ـ لا ..

ولكنها اطرقت برأسها فور أسى :

ـ حسنا ، ماذا تريدين أن تفعلي ؟ اذا لم تأخذيه ، فسوف اقتله أنا .

وظلت الطفلة في مكانها وقد روت ماقين حاجبيها ورمت شعثيها . وبدا فيها كأنه خط أبيض في وجهها . وبعد أن نظرت طويلا الى فوستو ، استدارت وغادرت الكنيسة وهو في أعقابها برأس مطرق .

وفي الشارع جلست الطفلة على الطوار ، وتمدد فوستو بجوارها . ورفعت من رأسها الشريط الأحمر ولفته حول عنق فوستو ، ثم وقفت تتأمله بنظرات فاحصة وهي تقول :

ـ لا .. انك لست جميلا ، ولن يشتريك أحد .

وفجأة توقف فوستو عن الارتعاد وتألقت عيناه ببريق عجيب ولكنها لم تعودا تشبهان النجوم ، بل لم يكن هناك قطعة زجاج تشبه النجم حقا . ان النجوم تلمع في السماء .. بعيدا .. بعيدا جدا وهي الآن واثقة تماما بأنك اذا نظرت اليها من قرب لوجدتها تختلف جدا عما تبدو من بعيد .

وامسحت الطفلة فوستو من قائمتيه الخلفيتين وضربت رأسه في الطوار . وشهق فوستو للمرة الأخيرة وكان في هذه المرة يشبه في شهيقه الرجل .

وتركته ممددا بين دمائه التي تزداد وهي تسيل من رأسه المحطمة .

واغلق فوستو عينيه الى الأبد .

وعادت الطفلة الى الكوخ . وكان الجد قد آب وراح يحصي ماجمعه من نقود ولما رأها واقفة تنظر اليه في باب الكوخ ، قال لها :

ـ ادخل أيتها المتشردة .

وسعل ، وسعل مرة أخرى ..

ودخلت الطفلة وهي تنظر اليه بامعان ، ثم سألته قائلة :

ـ هل حصلت على كفايتك من النقود اليوم ياجدى ؟

ـ لا ، ولا ، ولا .. واذا كان الأمر يهمك فاني لم أحصل على نصف ايجار الآلة الموسيقية .. وعلى هذا ...

وخلعت الطفلة ثوبها وحذاءها ، وسحبت حصيرة من شعرها بعد أن رفعت الشريط عنه عن جبينها وعينيها ، ورقدت على الحصيرة واشتعلت بالبطانية . وكان الضوء المنساب من النافذة المواجهة يسطع ، وفي داخلها كان بعضهم يغني ويصرخ ، وعلى أديم الشارع كانت تسمع وقع أقدام الراقصين والعابرين ، وتطلعت الطفلة الى السقف فاذا هو مظلم وحد قريب ، وخطر لها انهـا وجدها في حداثة الى سراج أيضا .

وقالت فجأة :

ـ جدى ، لقد قتلت فوستو .. انه لم يكن صالحا لشيء .

ورفع العجوز رأسه وفتح فمه وخامره لون غريب من الخوف ، احس بخوف غامض كالهواء الذى يحيط بالشموع ، أو كالأصوات التي ليس لها أصداء ، وشعر بعظامه تتصلب في جسمه ، وبدت بشرته في لون بشرة الميت ، واستطردت الطفلة تقول بصوت واضح رنان :

ـ جدى .. انني أراهن بأي شيء على انك ستموت قريبا جدا .

وتثاءبت ، واستدارت بوجهها نحو الحائط ، ولم تلبث أن استغرقت في النوم ، وبدت احدى يديهـا خارج الغطاء تحيلة معروقة لامعة مثل احدى نعابات الزجاج الملتصقة على الجدار

وجعلت شرع العجوز يبكي وهو يحصر النقود التي كان يحصيها في كفيه بعنف ، وبحث بنظراته عن الصليب المعلق في صمت وسكون على الجدار ، ولم يلبث أن انحدر يبكي داعيا لفوستو المسكين مترحما عليه ..

ولكن الطفلة كانت مستغرقة في النوم ، ورواد الحانة يشربون ويضجون ، واقدام كثير من الناس تروح وتغدو على الطريق ، ولم يسمعه أحد ، أو يهتم بأمره أحد .